الفصل التاسع

هضبة حسمى

ربما باستثناء مجموعة معابد روافة، التي يجب -بالأحرى- أن تحسب من حرّة الرحى لأنها تقع على حدودها الشمالية، فإن صحراء حسمى خالية تماماً من المباني، ويحتمل أن تكون قد ظلت على الدوام خالية أيضاً من السكان. إنها مقر العرب الرُحّل، مع قطعانهم ومواشيهم التي تجد المرعى الوفير في قفارها الرملية في جميع المواسم ما عدا الشتاء، عندما تطرد رياحها الثلجية القارسة الإنسان والحيوان على السواء إلى المناطق ذات المناخ الأكثر اعتدالاً في المستويات الأشد انخفاضاً للشرق والغرب منها، أي حوض تبوك وتهامة. ويبلغ متوسط ارتفاع حسمى حوالي ٤٠٠٠ قدم فوق سطح البحر، وترتفع قممها وجبالها الشاهقة إلى ٥٠٠٠ قدم أو أكثر.

وقد كنا لا نزال في وادي زيتة، ولكن على مقربة من حافة التلال الخارجية بالهضبة، وبعد أن سرنا مسافة أبعد بأميال قليلة وجدنا أنفسنا في كتلة متشابكة من الجبال العالية والتلال التي ينحدر خلالها

الوادي من الغرب. والآن استدرنا بزاوية قائمة مبتعدين عنها لنغطس نحو الجنوب في أرض فضاء شاسعة من الرمال الكثيفة بين الجبال البازلتية المنحدرة، والتي وجدنا فيها شاحنة شبه مدفونة قد تركها طاقمها قبل مرورنا بأربعين يوماً تقريباً. وغني عن القول أن شاحنتنا قد انغرزت بصورة سيئة، وعلى الرغم من أن ذلك لم يدم إلا نصف ساعة فقد استفدت منها استفادة طيبة بالمشي حتى قمة المرتفع لإلقاء نظرة عامة على المنطقة أمامنا. لم تكن هذه البقعة السيئة تزيد عن ميل عبر رمال خرم ثميري ولكنها كانت سيئة حقاً لأقصى درجة يمكن أن يتمناها أي سائق.

ومن القمة، كانت هناك مسافة طويلة خالية من العقبات نحو الجنوب - الشرقي فوق أرض سهلة على طول قاعدة جبل سدير مع الكثير من الجبال الأخرى على مسافة بعيدة عن الدرب على يميننا وهي: القليب والقطاريّة وثميري والزور بهذا الترتيب على طول طريقنا، وأمامنا تقع الكتل الشاهقة لجبل حوصل التي سوف تنحرف عن مسارنا إلى الجنوب - الغربي من نهاية جبل سدير.

وكان في التلال، على مسافات منفصلة متكررة، عروق من الرمل المنجرف، تصل أحياناً إلى ارتفاع منتصف جانب التل. وبعد أن سرنا ربع ساعة وصلنا إلى تل الضب المنعزل، حيث توقفنا هناك فترة وجيزة لشرب الشاي، بينما تسلقت أنا وهويمل بسرعة حتى

قمته. ويوجد هنا بعض النقوش الثمودية على الصخور إضافة لبعض الصور المثيرة التي قمت باستنساخها وعندما نزلنا إلى سفح التل وجدنا آثاراً واضحة لجدار قديم ودوائر من الحجارة يحتمل أنها كانت تستخدم لتثبيت أطراف الخيام التي نصبها من كانوا يخيمون في هذه البقعة. إن طريق السيارات الرئيس الحالي كان بالتأكيد طريق القوافل في عصر ما قبل السيارات، وكانت الأودية حول هذا التل المنعزل توفر دائماً مرعى طيباً للإبل خلال التوقف.

ولأسباب جغرافية عندي، كان الضب ذا أهمية قصوى؛ فعلى طول الطريق من تيماء حتى هذه البقعة لم يكن عندي وسيلة لقياس المسافات بدقة، لأن عداد السرعة في الشاحنة كان معطوباً. ولقد كنت أحتفظ بسجل تفصيلي لكافة الدقائق التي كنا نقضيها في السير أو الراحة، ولكن حتى مع ذلك لا يستطيع المرء إلا أن يخمن متوسط معدل التقدم، ومن الواضح أنه لا توجد سيارة تحافظ على سرعة منتظمة فوق طرق غير ممهدة يختلف نوعها من لحظة إلى أخرى. وبناءً على ذلك، كان من الواجب مراجعة المتوسطات التي وضعتها اعتماداً على قراءات البوصلة بعناية من قواعد قياسية وهكذا دواليك، ولم يكن ذلك مقبولاً ولا مرضياً تماماً، ولكنه أفضل ما يمكن عمله في هذه الظروف، وكان تنفيذه ينطوي على جهد مضنٍ. وبوصولنا عند الضب تغيّر هذا الموقف، لأنني كنت قد وضعت

هدفاً لنفسي خلال رحلتي الطويلة على مدى عامين لاحقين أن آت إلى هذا التل بنفس سيارة اللاندروفر القديمة، التي عولجت الآن من أعطابها، وبها عداد سرعة صالح للعمل، وعلاوة على ذلك، كان لدى رفيقي آر. جي. بوقي جهاز قياس الارتفاعات الذي أعطانا أفكاراً دقيقة بصورة معقولة عن ارتفاعنا في نقاط مختلفة.

من هنا كان منبر شرورى وأحد نتوءات جبل عاجات على خط واحد في اتجاه الشرق، وعلى الرغم من أننا لم نستطع في الحقيقة رؤية قريّة، إلا أن تلال مقاطع الخضر المطلة على قناة طرف كان من السهل تمييزها بوضوح، وكذلك قمة غوانم خلف تبوك. وقد وفرت لي الزيارة الثانية لهذه البقعة مادة علمية لتصحيح أي أخطاء ربما نشأت عن الأولى.

من تل الضب سرنا عشرة أميال في أرض فضاء رملية شاسعة بين جبال منخفضة على كلا الجانبين حتى منحدر يُصرّف مياهه للوراء في وادي زيتة، لتصل إلى مستجمع أمطار بينه وبين قناة وادي الصحب وهو رافد من وادي الأبيض الذي يمر في النهاية عبر مدين إلى البحر شمال الخريبة ولم يكن هناك سوى قليل من الملاحظات الخاصة في هذا الجزء من خط سيرنا، على الرغم من أن السيارة قد انغرزت مرات عدة في الرمل الناعم بالوادي. كان ارتفاع مستجمع الأمطار ٤٢٠٠ قدم فوق البحر، ومنه سرنا في قناة الصحب خمسة

أميال أخرى قبل أن نعزم على نصب خيامنا في حمى جرف حضب البير (أو قارة الحمراء) الضخمة، لقد استغرقنا سبعاً وستين دقيقة من السير الفعلي لنقطع مسافة خمسة عشر ميلاً من الضب، وأصبح ارتفاعنا الآن ٣٩٠٠ قدم.

وفي الطريق تمتعنا بإلقاء بعض النظرات الخاطفة الرائعة على جبال مدين، وقمة اللوز العظيمة في اتجاه الغرب منا، وكان مخيمنا الصغير المؤقت على خط تصريف سطحي على طول سفح الجرف قد بدا قزماً ضئيلاً وسط مجموعات عديدة من الجروف الصخرية العملاقة ذات اللون الأحمر - البني. وامتدت أمامنا سبخة طينية راسخة طولها ٥٠٠ ياردة تقريباً وتشغل نصف عرض القناة، وقد أمرت أن يوضع فراشي تحت قوس بسيط من الجرف الحاد، مع خط من شجيرات الرتم يفصل بيني وبين رفاقي في ارتداد آخر من الجرف. وعند الغروب تحول الرمل المنجرف في الوادي إلى لون بنفسجي زاه جميل بينما عند الشروق كانت الأجراف المقابلة لمخيمنا والرمال الممتدة أمامها تسطع بلون أحمر وأبيض زاه وفاتن.

وكان في نسيم الصباح لمسة من الشتاء، في حين كان الحد الأدنى لدرجة الحرارة ٣٥ درجة فهرنهايت تقريباً، وعلى مدى عشر ياردات من مكاني اكتشفنا آثار سير حديث للضباع، التي كان من الواضح أنها قد استطلعت موقعنا عن كثب، بيد أنها قد تخلت عن أمل

اصطياد تيسنا الباقي على قيد الحياة، والمربوط بإحكام بحبل طويل خلف كتل رفاقنا النائمين، وقد أكدنا فقدان الأمل بالنسبة للضبع بأن ذبحنا التيس لحفظه في بطوننا أثناء وجبة العشاء.

ويكتسح وادي الصحب من مقدمته نازلاً -حتى هذه النقطة- أرضاً رملية فضاء شاسعة، تتراوح من ١٠٠٠ حتى ١٥٠٠ ياردة، بين جبال عظيمة من الصخر الرملي تزداد دوماً في الارتفاع من ٣٠٠ قدم عند مستجمع الأمطار إلى ما يقرب من ١٠٠٠ قدم عند مخيمنا، حيث يضيق الوادي نحو ٤٠٠ ياردة. وينحرف وراء هذه النقطة مباشرة بصورة حادة نحو الشمال من مساره الغربي، بعد أن يتدفق فيه اثنان من الأودية الضيقة شديدة الانحدار من المرتفعات المجاورة هما: نتيش أو انتيش من الشمال تقريباً، وأم طليحة من الجنوب - الجنوب - الشرقي.

ويهبط الوادي الآن بمقدار ١٠٠ قدم في مسافة خمسة أميال إلى هضبة مدورة صغيرة من الجرانيت والبازلت مساحتها ٥٠ قدماً تعرف باسم المفرق، وتعد بصورة عامة مفترق طرق لحركة المرور المتجهة على التوالي إلى مدين ومركزي الحدود علقان وأبي الحنشان ويوجد مفترق الطرق في الواقع بعد مسافة سبعة أميال باتجاه مجرى التيار، حيث يأتي وادي زيتة (الذي يختلف بوضوح عن الوادي الذي ذكرناه آنفاً، على الرغم من احتمال أنهما ينزلان من مستجمع

أمطار مشترك في تلال تسمى مزيّلة) منحدراً من الشرق، كما يأتي وادي القحزة من الشمال – الشمال – الشرقي لتلتقي جميعها بقناة الصحب وتشكّل وادي الأبيض.

ويمضي طريق الحدود مع مسار وادي القحزة، بينما سرعان ما يترك طريق مدين القناة الرئيسة ليختصر ثنية طويلة وعرة من الصخر، وعند المفرق يلتقي وادي الصحب بقناة كبيرة تسمى وادي العقلة آتية من الجنوب، وباثنين من الأودية الصغيرة شديدة الانحدار من جبلي حصب وجلادي في جهة الغرب. وتعد بعض السلطات المحلية أن التقاءَ واديي العقلة والصحب هو الرأسُ الحقيقية لوادي الأبيض، بينما يرى آخرون، لأسباب أشد وضوحاً، أن العقلة وامتداده بأسماء محلية أخرى هو وادي الأبيض الحقيقي، الذي يصرّف مياه المنحدرات الشرقية من جبل مدين، ويزدوج لاحقاً في مساره على طول حافته الغربية حتى البحر، بعد أن يصبح اسمه الآن عفال. ومهما يكن من أمر، يجب أن نلاحظ أن تل المفرق الصغير يرسّم فعلاً حدوداً جغرافية هامة؛ فالصخور النوبية الرملية تبتعد الآن لتفسح المجال لصخور مدين الجرانيتية والبازلتية.

لقد وصلنا الحدود الغربية لصحراء حسمى على الرغم من أننا لم ننته منها بعد، وقضيت جزءاً كبيراً من الصباح التالي مع الأدلاء في البحث عن نقطة عالية ذات مزايا توفر لنا رؤية عامة لأرض الميعاد.

وسرعان ما استبعدنا شريط الأوتاد الصخرية العظيمة على كلا جانبي الوادي قرب مخيمنا لأنه من المستحيل تماماً تسلقها، وقد تجمد الأدلاء من الرعب عندما درت دورة حول مكان راحتهم بحثاً عن طريقة للتسلق. أستطيع القول إن أحد متسلقي الجبال يمكنه عمل ذلك، ولكنني لست واحداً منهم على كل حال على الرغم من أنني أستطيع أن أدعي بأنني قد تسلقت قمماً عربية أكثر من أي رجل حي (أو ميت في هذا الأمر بالتحديد).

إن الجزيرة العربية في الحقيقة أحد أكثر المناطق وداعة وسهولة في العالم، وجبالها لا تمثل صعوبة خطيرة، على الرغم من وجود كثير من المشاق التي يجب على أولئك الذين يريدون ذلك أن يواجهوها.

وقد اتفقنا على تسلق جبل أم طليحة وبعد تسلق قاس تماماً وصلنا في وقت مناسب إلى قمته على ارتفاع ٥٠٠ قدم تقريباً فوق مخيمنا، وهنا انفجر أمامي كل بهاء مدين ومجدها القديم، وأحسب أننا كنا، نحو ٢٠٠ إلى ٣٠٠ قدم أقل علواً من جبلي هضاب البير وقرة الحمراء الكبيرين، بينما كانت مرتفعات وقمم أم طليحة نفسها تغطي مساحة قدرها ميلان أو ثلاثة أميال مربعة. وقد فصلتنا قناة العقلة عن الكتلة المتهدمة من صخور الجرانيت والبازلت، وارتفعت بصورة حادة إلى الضلع الرئيس لسلسلة جبال مدين، الذي كنا الآن نرى قممها تمتد أمامنا وترتفع ارتفاعات شاهقة حوالي ٧٠٠٠ قدم

وهي: اللوز ومجموعتها على مسافة بعيدة نحو الشمال، وبعدها قمة المقلع الهرمية العظيمة نحو الجنوب، وسلاسل جبال الشلالة العالية تهبط إلى جبل الزهد الكبير، وهو أقربها إلى البحر، وباتجاه جنوب - جنوب - شرق يقع فضاء البُطينة الواسع، الذي يفصل صخور حسمى الرملية عن أصقاع مدين البركانية.

ولكي نصل إلى ممر البطينة اضطررنا إلى أن نمضي حتى صخرة المفرق ونسير مسافة قليلة في وادي العقلة، حيث انتهى بنا رافدٌ شعيب العوينات إلى جرف طور الجوف من الصخر الرملي الضخم، الذي وجدنا فيه عدداً هائلاً من النقوش.

وهنا قدّر لنا أن ننصب خيامنا في رحلة عودتنا بعد ذلك بثلاثة أيام مع دليل جديد هو عودة بن سعيد -من فخذ الخمسات من بني عطية -الذي وجدناه في (أبو مخروق) ليحل محل سليمان بن محمد وهويمل، اللذين كانا من فخذ الربيلات من القبيلة نفسها. ومع عودة انطلقت صباحاً في رحلة إلى تلٍ ووادٍ في منخفضات فرع الأسمر البازلتية، ولرؤية كوم ضخم من الصخر الرملي برز لي من مسافة بعيدة كنقطة مثالية لأشاهد منها المنطقة، وقد ثبت أنه من المستحيل تماماً الوصول إليه أو الاقتراب منه، فهو حوالي ٨٠٠ قدم من الصخور الرملية الحادة الانحدار، طولها ٥٠٠ ياردة وسمكها ٢٠٠ ياردة، وينتصب على قمة بازلتية من المنخفضات حوالي

٤٦٠٠ قدم فوق البحر، لابد أن قمة الجبل (الكوم) كانت حوالي ٥٤٠٠ قدم أو ربما أقل بقليل.

وعندما انطلقنا من المخيم مررنا بآثار أقدام الضباع الحديثة، وفي واد آخر خلال عودتنا صادفنا آثاراً قديمة لمشى زوج من الحيوانات، ومن الطريف أننا شاهدنا أيضاً آثاراً حديثة لسير وعول (تيوس الجبل) في الرمال المنجرفة قرب قمة أم طليحة، وعلى أحد جوانب أحد الشعاب (الأشهب) -الذي قطعناه بالعرض عند عودتنا للمخيم في هذه المناسبة- مررنا على أنقاض كتل صخرٍ ضخمة قد انهارت في غضون الأيام القليلة الماضية بسبب الأمطار، ولا بد أن حوالي نصف الكوم قد سقط للأمام، مما ترك صفحة نظيفة من الصخور الجديدة وراءه، بينما كان المنحدر تجاه قاع الشعيب مليئاً بأطنان الأنقاض من الصخور المحطمة. لابد أنني وعودة قد مشينا حوالي ثلاثة أميال حتى جبل فرع الأسمر وكانت رحلة العودة التي التفت حول الأودية كانت أطول نسبياً، وفي أثناء سيرنا تاركين المكان بالسيارة التزمنا الطريق المباشر إلى نقع بني مُر عن طريق ممر البُطينة متجهين بشكل منتظم نحو الجنوب - الجنوب - الشرقي. وبعد حوالي ميلين أو ثلاثة أميال من جبل طور الجوف وصلنا أعلى الممر (٤١٠٠ قدم فوق سطح البحر تقريباً)، الذي يشكل فاصلاً بين خطّي تصريفٍ أحدهما يتجه للشمال ليلتقي بقناة وادي الأبيض

عكس اتجاه التيار تقريباً من صخرة المفرق، بينما الوادي الأكبر منه ينحدر نحو الجنوب، والذي يجمع المياه الفائضة من وهاد كثيرة أثناء تدفقه يمكن أن يعد أعلى امتداد لوادي ضم الذي عبرناه في المنطقة المجاورة لمحطة الحزم، وهو يلتف نحو الشرق الاسم نفسه في المنطقة المجاورة لبعض الأكوام الضخمة من الحجر الرملي، تعرف باسم سرٌّ أم جُمَيْع، من بقايا خزان مياه قديم مبطن بالحجارة في القاع وبئر لا تزال توجد فيها المياه خلال المواسم الطيبة.

ويقع مستجمع الأمطار في منخفض بجبل العوينات، حيث تظهر القواعد البازلتية لهيكل الصخور الرملية بوضوح على كلا جانبي الممر، والباقي منه نحو الجنوب ويشكّل حداً فاصلاً وواضحاً بين المرتفعات البازلتية بالغرب وصخور حسمى الرملية نحو الشرق، وكان المشهد عن يسارنا من أجمل المشاهد فأجراف الموفة الحادة وأبو كفر والمخضمات والحبيل تبطن الممر بين الاثنين الأخيرين الذي يؤدي إلى بعض الجدران الصخرية الرائعة بنفس القدر وتعرف باسم (أبا البيبان) التي زرناها في رحلة عودتنا.

وأمام الجرف الرئيس فيها تمتد "خبرة" كبيرة أو سبخة طينية منخفضة، تحتفظ بالماء في المواسم المطيرة، وكان قسم كبير من الجرف نفسه قد صقله القدماء ليكون لوحة هائلة تعكس صفاً من الرسومات الخطية البدائية نسبياً لعدد من الكائنات البشرية الخرافية

من الذكور، ذات أحجام مختلفة، يحتمل أن تكون هيكلاً لعرض آلهة ثمود، وكانت هناك صورة واحدة أصغر نسبياً من الأخريات، ويبدو واضحاً أنها تهدف لتمثيل معبودة أنثى.

وتوجد أيضاً منصة بارزة من سفح الجرف فوق مستوى بركة خبرة من المؤكد أنها تشير إلى أن هذا كان نوعاً من مراكز العبادة، على الرغم من أن النقوش القليلة التي وجدناها في المنطقة المجاورة لم تزد عن كونها توقعيات الزوار أو المسافرين العابرين، ولم يكن هناك أي شيء مهم ليلقي الضوء على فحوى هذه الصور، وما على الخبراء إلا أن يقترحوا لنا نظرية ما تفسر أهميتها [1]. وكان من الواضح أن المجموعة كلها قد نفذت بيد واحدة، وليس من المرجح أن يكون غرضها المتعة أو التسلية فقط.

ومن الواضح أن هذه المنطقة يرتادها البدو في الأيام الخوالي، وكذلك المسافرون، لأنه، بالإضافة إلى توفر إمدادات المياه بصورة مؤقتة من بركة (أبا البيبان)، فإنه يوجد ينبوع مياه أكثر ديمومة وهو مشاش المغار على بُعد حوالي ميل إلى الشرق، عند أسفل أخدود رائع، ينحدر بقوة من مرتفعات جبل مغار ذي الصخور الرملية.

(١) ويؤكد بيريه فان دن براندن أن هذه الأشكال تمثل آلهة تظهر السمات الذكورية بوضوح شديد.

وقد وجدنا عدداً كبيراً من النقوش الثمودية في محيط الجبل وفي سلسلة من الكهوف والدهاليز، التي حفرتها السيول في جوانب الأخدود، وهي كالعادة غير مفهومة.

وكانت المراعي الغنية حول هذه البقعة وفي الممر الرئيس الذي جئنا من خلاله، تجذب في هذا الوقت أسراباً ضخمة من الجراد، معظمها مستقر على الأرض أو على شجيرات الحمض والرمث بينما رأينا أيضاً غزالة وحيدة، وفي الممر وحوله كانت توجد أعداد مثيرة من كتل الصخر الرملي هي ثليثوة أي ذات الأعمدة الثلاثية، وخالث البدن التي تشبه عش الغراب، وجرف الأرخم الحاد، الذي تتناثر فيه الكهوف، وقد توقفنا عنده لنتيح لعودة أن يضع لنا أحماله بعد غيابه في مهمة. ولم يكن يدري متى سيعود لاستعادتها، كما لم يخطر بباله أبداً أنه قد يفقدها عند عودته فعلاً.

إن قانون البدو يضمن عدم انتهاك مثل هذه المخابئ. وفي أثناء خروجنا توقفنا للشاي عند سفح جرف موفة على بُعد أربعة أميال تقريباً بعد مستجمع الأمطار، ومن هنا سرنا سيراً طيباً نسبياً، مع توقف عند صخرة عش الغراب لاستنساخ نقوشها، وقطعنا حوالي أربعة أميال حتى وصلنا إلى آبار بني مُر في حوض النقعة الذي أخذ نفس اسم العنصر القبلي ويحتمل أن يكون جزءاً من بني عطية، على الرغم من أنني لم أتمكن أبداً من الحصول على أي تفسير مقبول

لهذا الاسم. ومع ذلك قيل إن كلمة مُر (أي مرور) قد تكون أقدم بكثير من وجود بني عطية في هذه المناطق، وقد ترتبط بمرور بني هلال وهم في طريقهم إلى أفريقية.

وبالقرب من هذه الآبار، التي لا تعدو أن تكون حفر مياه موسمية تحفظ كمية لا يمكن الوثوق بها من المياه، كانت توجد كتلة جميلة المنظر من الصخر الرملي فيها قوس رائع، يغطي فجوة كبيرة في طرفها الجنوبي، وكانت تبدو مكاناً مثالياً لنصب خيامنا فيه، إذ سرعان ما حططنا رحالنا تحت قبوها بجوار ينبوع مياه ضحلة، آمنين من الجو الذي كان قد بدا ينذر بالتغيير، وقد كانت جدران الكهف مغطاة بغزارة بما دوّنه الضيوف الذين تمتعوا بملاذه من ذكريات على مدى ألفي عام قبلي.

وقد عثر رفاقي على ارتداد ملائم في الأجراف القريبة لإقامة خيامهم، واستقر بنا المقام فيما ثبت أنها كانت ليلة معتدلة ومريحة، حيث كان الحد الأدنى لدرجة الحرارة مرتفعاً حتى ٥٠ درجة فهرنهايت. وسرعان ما بدأت السماء تتلبد بالغيوم بصورة كثيفة نسبياً قرب منتصف الليل، على الرغم من أنها كانت صافية تماماً عند الغروب، كذلك المشهد الساحر لمطاردة المشتري للزهرة في الأفق، والنجم الثاني من الحوت أعلاه تماماً، والقمر الذي ما زال بدراً ليس ببعيد خلفهن، وفي الساعات الباكرة من الصباح بدأت تهبّ علينا

ريح باردة جديدة محملة بقطرات من المطر على فترات متقطعة، ولكنه ليس عندي ما يقلقني إلا مشكلة الأدلاء التي تتكرر دائماً. لقد عمل سليمان وهويمل، لاسيما الأخير، بإخلاص شديد في خدمتي منذ استخدامهما في قريّة، ولكنهما قد وصلا فجأة إلى آخر إمكانياتهما عند البطينة، وكان من الواضح أنهما قد وصلا نهاية قدرتهما على متابعة الأمور.

وعلى كل حال، كانت مراعي حمض الغنية في الممر قد جذبت جماعة صغيرة من عرب الخمسات (من بني عطية) وقطيعاً من الإبل علاوة على الجراد، وقد رأينا بعض الجمال حديثة الولادة التي لا يزيد عمرها عن يوم أو يومين في أثناء مرورنا بجوارهم، ومن الطريف أن القسم العربي في هيئة الإذاعة البريطانية قد أذاع لتوه تقريراً عن هجوم قوي للجراد على كل من العقبة ومناطق عبر الأردن، الذي يحتمل أن يكون قد نشأ في صحراء حسمى، حيث رأيت بالفعل علامات للجراد في أقصى الجنوب بمناطق مثل الزاوية وروافة، وفي بعض أجزاء وادي البطينة كانت شجيرات الحمض قد نمت إلى شجر كثيف كبير يصل ارتفاعه أحياناً إلى ثلاثة أقدام، مما كوّن غابات كثيفة حقاً تعرضت فيها شاحنتنا لصعوبات مرات كثيرة. وكان سهل أو حوض النقعة دائرياً بشكل أو بآخر بقطر يبلغ ميلين تقريباً بين الصحراء البازلتية الداكنة عن يميننا والحجارة الرملية

عن يسارنا، والأخيرة تضم عدداً من النتوءات والأجراف الرائعة حول حافة الدائرة.

وخلال الجزء الأخير من رحلتنا نادراً ما كان يختفي عن أنظارنا نقطة أو أخرى من جرف جبل الشَّعْثَاء والنَّعَمى وقمم تهامة من خلفهما، والتي تشمل دباغ وحَرْب اللذين لم يتعرف عليهما دليلاي حيث اعترفا صراحة بأنه ليس لديهما أي علم بهذه المنطقة الجديدة، وكل ما استطعت أن أقوله لهما إنهما لابد أن يعثرا على دليل جديد ليحل محلهما إذا كانا يريدان الانصراف من خدمتي، وبمحض الصدفة حُلّت المشكلة في الليلة نفسها بوصول رجل من مخيم الخمسات يبحث عن عشاء ووظيفة مربحة؛ كان هذا هو عودة الذي ورد اسمه بالفعل فيما تقدم من قصتي، وحلقت فوقنا طائرة في منتصف الليل، عندما كنت أتهيأ للنوم بعد أن انتهيت من حل الكلمات المتقاطعة في جريدة التايمز، فقد تلقيت عدداً هائلاً من إصدارات هذه الجريدة التي ترسل بالبريد الجوي قبل مغادرة تبوك مباشرة في أول بريد يصلني منذ أن غادرت المدينة، وقد ألزمت نفسي إلزاماً شديداً حتى الإفراط بألا أقرأ أكثر من جريدة واحدة كل ليلة، لتزودني بالراحة والاسترخاء الوحيد الذي سمحت به لنفسي خلال أسفاري ورحلاتي.

استيقظت في الصباح التالي بظهور دملاً كبيراً على كاحلي الأيمن، والذي أصبح مؤلماً بشكل متزايد في أثناء النهار، وكل ما كنت أستطيع أن أفعله أن أعرج حول الجرف في جبل «أبو مخروق» الذي كنا نخيم فيه، ربما بمقدار مسافة نصف ميل من المشي، لاستنساخ النقوش الكثيرة جداً، التي كان معظمها نقوشاً نبطية، وبعد أن انتهيت من ذلك تمددت على فراشي فترة وجيزة وتناولت قرصين من الأسبرين لتخفيف الألم، وبعد ذلك اكتشفت زاوية منعزلة مريحة ومحمية من الريح الغربية القاسية، وقضيت فيها جُل الأصيل بلا عمل، ودخنت مرات كثيرة من الغليون وانتهيت من حل كلمات متقاطعة أخرى.

وكان عزائي الوحيد أنني لم أكن أستطيع بأي حال من الأحوال أداء كثير من العمل في ذلك اليوم. وقد بزغ الفجر في سماء رمادية كئيبة، بقطرات من المطر من وقت لآخر لتبشر بالعاصفة القادمة، التي طوّقت فعلاً جبل الشعثاء وأجزاء أخرى من سلسلة المرتفعات، حيث كان المطر ينهمر فيها بغزارة تتخللها لحظات من الرعد والبرق. وعندما تقدم النهار بدأت السحب تقترب منا كثيراً وعند منتصف النهار كان الرذاذ ينزل بصورة مستمرة مع أزيز الرعد أحياناً. لقد اختفى العالم كله من حولنا بشكل حقيقي بسبب العاصفة، وبعد الظهر استمر هطول الأمطار بغزارة حوالي عشرين دقيقة، وعند

ذلك فقط بدأت بعض البقع الزرقاء تظهر في السماء في الشرق، على الرغم من بقاء السحب الممطرة السوداء فوق باقي المنطقة. وفي مثل هذه الظروف لا يمكن أداء عمل جاد، وقررت أن نظل حيث كنا في المساء على أمل أن تتحسن هذه الظروف في الغد. إن حوض نقع بني مُر كان عنصراً بالغ الأهمية في اقتصاد حسمى بحيث لا يمكن الاستهانة به، وكان من غير المرجح على الإطلاق أنني سوف أراه مرة أخرى، وفي الحقيقة لقد زرته بعد ذلك بعامين من هذا اليوم بالضبط (١١ فبراير ١٩٥٣م) عندما عرجت مرة ثانية على "أبو مخروق" في ثنايا رحلتي مع بوج.

لقد كان أدنى مستوىً في الحوض على ارتفاع ٣٥٠٠ قدم فوق سطح البحر، وبالتالي نكون قد هبطنا حوالي ٤٠٠ قدم من مخيمنا في قرة الحمراء، والرافد الرئيس هو وادي الرَّيْط الذي يقع رأسه عند مسافة بعيدة إلى الغرب في مستجمع أمطار مشترك مع وادي الأبيض، ويلتقي بكثير من الروافد في طريقه، وكلما اقترب من حوض النقعة فإنه ينبسط في الدلتا الواسعة التي تندمج في أرض وادي البلس المنبسطة مثلها، وينحدر هنا الوادي من تل بارز يحمل الاسم نفسه في الجنوب - الغربي، كما ينحدر شعيب الخوى من الأرض المرتفعة إلى الشرق من الحوض بصورة شديدة الانحدار نسبياً من مستجمع أمطار على ارتفاع يبلغ ٤٠٠٠ قدم فوق سطح

البحر، وقد زرته مع بوج لنكتشف جرفاً مزيناً برسم أخاذٍ -على الرغم من بدائيته- لصفٍّ من ست عشرة نعامة. كانت هذه النقطة على بُعد حوالي ثمانية أميال من الحافة الشرقية للحوض، التي تصب فيها السيول بين رأسي جبلين شاهقين هما قور البيضاء وقور الحمراء. والمياه السائلة من المنحدر العكسي تشق طريقها حتى وادي ضم ثم تستمر حتى تصب في النهاية في سبخة الحرد بحوض تبوك. وكما ذكرنا من قبل، يلتف ممر البطينة نحو الشرق ليصبح اسمه وادي ضم على بُعد ميل أو اثنين قبل الحافة الشرقية لحوض النقع الذي يتلقى على كل حال مساهمات قليلة من المياه من الصخور والجبال الكثيرة حول حافته. وما يجدر ذكره منها شعيب الغُوَيْل من الجنوب - الشرقي، حيث تبرز قمم الشَقيق والشُقيق بصورة واضحة وجلية في عنان السماء. وهناك أخدود وعر ضيق يفصل الواجهة الرئيسة لجرف قور الحمراء عن كوم شديد البروز من الحجر الرملي يُسمى مَقْلاع الذي زرته أملاً في العثور على نقوش، ولم أر شيئاً منها هناك، بيد أنني وجدت الكثير منها بوفرة في مواقع أخرى كثيرة بالمنطقة المجاورة له؛ وهي على وجه التحديد صخرة صغيرة معزولة مربعة على بُعد ألف ياردة فقط من كهفي الذي كنت فيه.

وليت وجهي شطر هذه الصخرة في أول تحرك لي في الصباح الذي تلا يوم توقفي عن العمل. كان الحوض مغطى بضباب كثيف،

وقد شتته الشمس ببطء، ولم يكن هناك أي سحب في السماء، وكان الهواء يبدو ثقيلاً بلسعة ثلجية مميزة، على الرغم من أن الحد الأدنى لدرجة الحرارة في الليل لم يهبط أقل من ٤١ درجة فهرنهايت.

وفي البداية لم يكن هناك ريح على الإطلاق ولكن خلال النهار بدأت تهب علينا ببرودة قارسة، وفي أثناء زيارتي الثانية للصخرة لإكمال استنساخ نقوشها كانت فرائصي ترتعد من برد الريح الثلجية، ولم تكن أصابعي تقوى على إمساك القلم إلا بصعوبة بالغة. لقد كانت جوانب الصخرة الأربعة تغص -بكل ما في هذه الكلمة من معنى- بالنصوص الثمودية، بيد أنه كان يوجد أيضاً بعض النصوص السبئيّة والنبطية وعدد ضخم حقاً من النصوص العربية.

ومن الواضح أن حوض نقع كان ملاذاً أو منتجعاً شعبياً منذ عصور موغلة في القدم، يحتمل أنه كان في أحد العصور بمثابة محطة من مراحل طريق الحجاج إلى مكة. كانت النصوص العربية بكل تأكيد من عمل الحجاج، الذين مروا من هنا إلى حوض النعمى المشابه له، والذي كان موقعه في الجنوب يدل عليه تل الغراب ذو اللون الأسود، ومن هناك على طول الجانب القريب من الجرف حتى ممر الخريطة في اتجاه الجنوب في الغالب.

كان سطح الحوض مشبعاً بالماء من مطر يوم أمس عندما سرنا عبره إلى كوم مقلاع الذي مكننا من إلقاء نظرة رائعة على المنطقة المحيطة به، على الرغم من أن قمته كان من المستحيل الوصول إليها، حيث كانت ترتفع فوقنا بجرف حاد قدره ١٠٠ قدم تقريباً، وبالقرب منا على صخرة صغيرة معزولة عن جرف قور الحمراء اكتشفنا عدداً طيباً من النقوش، قبل أن نضرب مطايانا (سياراتنا) عائدين إلى خيامنا عبر الحوض عن طريق الآبار التي كان فيها كثير من الماء، على الرغم من أنني وبوج قد وجدناها بعد ذلك بعامين متوقفة عن العمل بسبب السيول، وعلى مقربة، كانت توجد آثار بيت بسيط يبدو أنه كان في الأصل مخصصاً لحراسة الماء من الأعداء.

وعندما عدنا إلى كهفنا، قمنا بتحميل أمتعتنا وسرنا بكل تراخ وتمهل عبر الحوض نحو الشمال، ونحن ننتقل من صخرة إلى صخرة بحثاً عن مزيد من النقوش وجدنا كمية غزيرة منها في الطريق إلى جبل الشُقيق المنخفض والمكون من الحجر الرملي، على بُعد حوالي خمسة أميال للشمال تماماً من كهف "أبو مخروق"، حيث قررنا أن ننصب خيامنا هناك لقضاء الليل. هنا وهناك كنا نجد برك المياه في التجاويف عند سفح الأكوام المختلفة، وكان الجراد بالطبع لا يزال موجوداً بوضوح. ليس من الضروري أن نذكر بالتفصيل ما تبقى من رحلة عودتنا عن طريق أخدود مغار و"أبا البيبان" اللذين

ناقشتهما من قبل. يكفي أن نقول: إننا قد وصلنا في وقت مناسب عند صخرة المفرق منتصف نهار يوم ١٢ فبراير، لنواصل السير هابطين في وادي الأبيض.

وقبل أن نستمر في تلك القصة، يجدر بنا أن نتخطى سنتين من عمر الزمان، لنوضح غموض مصادر وادي الأبيض، الذي يعد "نهر" مدين العظيم. في ٩ فبراير ١٩٥٣م، وفي ثنايا رحلاتنا الطويلة بشمال - غرب الجزيرة العربية بطولها وعرضها، وصلت أنا وبوج قناة وادي الأبيض عند التقائها مع وادي زيتة ووادي القحزا على بُعد ميلين تقريباً أسفل الثنية الكبرى التي تحدثها باتجاه الغرب لتتفادى الحاجز من جبال مدين الذي لا يمكن اختراقه. عند حوالي ثلاثة أميال فوق الثنية أقمنا مخيمنا عند شفا جرف رائع حقاً من الجرانيت، الذي يرتفع مقوساً قليلاً عدة مئات من الأقدام فوقنا، مع وجود قناة شديدة الانحدار على أحد الجوانب وهي هابطة في غابة صغيرة من أشجار السنط، هذه هي أم نُخَيْلَة حيث تقرر بموجب ترتيبات قمت بها مع أمير ضباء قبل ذلك بعدة أسابيع، أن تترك لنا شاحنة البريد المنتظمة اثني عشر برميلاً من الوقود لمواصلة رحلتنا.

لقد كانت البراميل هناك، وبمصادفة عجيبة كانت الشاحنة التي وضعتها قد وصلت من تبوك في صباح اليوم التالي، ليتناول سائقها

طعام الإفطار معنا وتأخذ البراميل الفارغة معها قبل أن نفترق على طرق مختلفة.

وفي غضون ذلك كنت أنا وبوج قد قمنا برحلتنا السريعة التي ذكرتها آنفاً، إلى الضب عن طريق صخرة المفرق ومخيمي القديم في قرة الحمراء.

وطلع علينا صبح اليوم التالي بريح شمالية باردة تلفح وجوهنا مع ضباب كثيف مثل ضباب اسكتلندا وكان ذلك نذير شؤم لسيرنا في ذاك اليوم، على الرغم من أنه قد تشتت وتلاشى في النهاية. وبعد أن قطعنا ميلين بعد مخيمنا كنا قد عدنا إلى صخرة المفرق، ومن هناك فصاعداً كنا في منطقة لم يرها شخص متحضر أبداً من قبل. لقد غيّرنا الدليلين اللذين رافقانا حتى الآن برجل من الخمسات من بني عطية، يُدعى مقبل بن سلامة بن مقبل بن عايض، الذي حاز الدرجة الكاملة في رأيي بتأكيده على ما لديّ من انطباع، وبالرغم من التشتت الذهني لدى بعض البدو المحليين، على أن القناة التي سوف نسير فيها الآن كانت هي الجزء العلوي من وادي الأبيض، فالجزء الأول من الوادي يُعرف محلياً باسم وادي العقلة بدءاً من بئر على مسافة بعيدة عكس اتجاه التيار. وكان اتجاهنا العام نحو الغرب قليلاً من الجنوب باتجاه تلين يشبهان الثديين ويُسميان الرُميمنة في منطقة غير مرتفعة نسبياً يلتقي فيها الكثير من الروافد الصغرى

بالوادي الرئيس على كلا جانبي المنخفضات البازلتية المنحدرة، التي تفصل سلاسل جبال مدين الرئيسة (الجرانيتية) عن صخور حسمى الرملية. كانت الرؤية لا تزال ضعيفة نسبياً، ومحدودة مسافة ميل تقريباً، بسبب الضباب الذي ما يزال عالقاً، والذي من خلاله كانت المعالم الأرضية الأشد بُعداً تلوح أمامنا مثل الأشباح.

بعد حوالي خمسة أميال من المفرق بدأ الوادي يتجه غرب - جنوب - غرب إلى سفح جبل اللوز الذي بدأت تظهر منه بعض القمم الأكثر قرباً من الجنوب، على الرغم من أن قمته الرئيسة كانت محجوبة عن أنظارنا بالأكتاف الشرقية للجبل، وعند هذه النقطة يقع بئر العقلة بعيداً إلى حدٍ ما عن مسارنا نحو الغرب، بينما كان تلاّ الرميمنة نحو الغرب.

وكلما اقتربنا من قاعدة الجبل أصبح الوادي مغطى بكثافة بشجيرات الرتم ونباتات أخرى، وبعد حوالي ثلاثة أميال من الثنية كان هناك شعيبا الحُزيّن من الضفة اليسرى وعُميّد من الضفة اليمنى وقد قيل لي إنهما على الطريق العادي المنتظم للإبل المحملة بأحمال خفيفة، والمؤدي إلى ممر وعر عبر الجبال حتى وادي عَفَال على الجانب الآخر، وهناك طريق ثان في شعيب السِّيق على مقربة من الطريق الأول ويلتحم معه ليمرا معاً فوق الكتف الأيمن لجبل اللوز بمضيق الحَجيّة. والآن يبتعد وادي الأبيض عن حافة الجبل نحو

الجنوب - الشرقي، وبعد ذلك نحو الجنوب، ليتفادى أو يلتف حول الأسوار الخارجية للجبل، كلما اقتربنا تدريجياً من مستجمع أمطار الوادي تحت جبل المحرق الأسود.

وقد بدأنا الآن ندور ونلف في منطقة شديدة الوعورة تحت الجوانب شديدة الانحدار لجبل مَقْلاع حتى خرجنا إلى أرض فضاء واسعة قادتنا إلى رأس وادي الأبيض بين كتلتي المحرّق عن يميننا والقحبونة إلى يسارنا، هنا توقفنا لصلاة العصر وتناول بعض المرطبات أي على بعد عشرين ميلاً تماماً من صخرة المرفق وعلى ارتفاع ٥٢٦٠ قدماً فوق سطح البحر حسب جهاز قياس الارتفاعات بمعيّة بوج. من هنا يمتد وادي الأبيض نحو الشمال - الشمال - الغربي، بينما تقع أمامنا نحو الجنوب - الشرقي، المنحدرات المعروفة باسم علو حيفا التي تتقارب خطوط تصريف المياه فيها مع قناة وادي حيفا، ولم يكن هناك شيء مميز عند هذا الخط المهم لتقسيم المياه، على الرغم من وجود بعض أكوام الحجارة المتناثرة، التي ربما كانت مجموعة من قبور الحجاج.

عندما استأنفنا رحلتنا بعد توقف دام ساعة، أتينا بعد ما يزيد قليلاً عن ميل إلى أيكة كبرى جديرة بالملاحظة، فهي غير عادية بدرجة كافية في مثل هذه الأرض حتى إنها تحمل اسماً فذاً لها، وهو المطعمة. لقد كان من الواضح أنها الأثر الباقي على الوجود من

بستان كبير ذي أهمية دينية أو قبلية، حسب ما تدل على ذلك الخرق أو الأسمال البالية التي لا تزال تتطاير مع النسيم من أغصانها العادية من الورق، هذه الزينة توحي بأنها كانت محطة على طريق الحجاج نحو حوض بني مر الذي أشرت آنفاً إلى احتمال كونه محطة على الطريق إلى مكة.

وعلى كل حال، لم يكن لدى مقبل أي فكرة عن الموضوع، على الرغم من أنه قد سمى الأيكة باسم البُطم وهي نبات البُطم أو الضّراوة المذكورة في الإنجيل، أو أحد أنواع شجر البلوط المعروف على نطاق واسع في منطقة أبعد إلى الشمال في محيط البتراء، على الرغم من أنني وجدت صعوبة في التوفيق بين الأوراق الميتة من الأغصان وبين هذا التعريف. كانت الأيكة التي فحصتها عن كثب، تتكون من ثلاثة جذوع لأشجار منفصلة، ذوات محيط كبير، فيها عُقد كثيرة وملتوية مع مرور الزمن، وأغصان ممتدة وترتفع لنحو عشرين قدماً.

لقد اضطررنا إلى ترك مشكلة أشجار البُطم بلا حل ونحن ننزل منحدر حيفا نحو الفجوة الضيقة بين جبلي الجهراء والعجيثر أمامنا، وفي أثناء ذلك مررنا على رجل وحيد يركب جملاً متجهاً نحو مستجمع الأمطار الذي تركناه لتونا، وقد دهشت من اكتشاف أن خط التصريف من البقعة التي عبرناها بالعرض من مستجمع أمطار

وادي الأبيض كان ينحرف بسبب هذه الجبال نحو الجنوب - الغربي ليدخل في وادي عفال من خلال فجوة بين جبلي مقلاع والشلالة. وواصلنا سيرنا باتجاه جنوب - شرق عبر ممر الجهراء - عجيشر حتى هبطنا في رأس وادي الريط، وهناك أقمنا مخيمنا لنبيت الليل فيه. لقد هبطنا حوالي ألف قدم من مستجمع الأمطار، وعلى الرغم من صفاء السماء وخلوها تقريباً من الغيوم، كنا قد قضينا يوماً تضعف فيه الرؤية بسبب الضباب المبكر وما تلاه من عتمة، ولقد قطعنا ثلاثين ميلاً فقط خلال النهار، بيد أنه كان يوماً عامراً بالاكتشافات المثيرة تماماً.

ومن سوء الحظ أننا لم نقابل أي بدوي، وتناولنا عشاء كاد أن يكون بلا لحم لولا وجود أرنب بري صاده مسفر، وكان قد جاءنا رجلٌ من بني عطية في مخيمنا في أم نخيلة مع زوجته وأخيه الأصغر، بعد أن ساروا الطريق كله من رم في الأردن، ونصبوا خيامهم خلف بعض الشجيرات بالقرب من خيمتي، ولكن اقتراحي بضرورة إرسال الأرنب المطبوخ إلى المرأة قد رفضه زوجها، وكل ما نالته كان ما بقي منه بعد أكلنا؛ لقد كانوا في طريق عودتهم إلى نقعة بني مر بعد زيارة أقاربهم في رم. وكان الحد الأدنى لدرجة الحرارة في الليل ٣٤ درجة فهرنهايت، ولأول مرة منذ أسابيع كثيرة نزل علينا ندى كثيف، على الرغم من أن الصباح قد بزغ بسماءٍ صافيةٍ خالية من السحب والريح.

يمتد مسارُنا الآن نحو الجنوب - الشرقي في وادي الريط، وليس هناك ما يستحق ذكره سوى دخول روافد صغيرة متنوعة من هذا الجانب أو ذاك من مرتفعات البازلت على كلتا الناحيتين، وكانت الشاحنة تحرث طريقها وسط النباتات الغنية من شجيرات الشيح والرتم والبعيثران (الحمض) التي كانت روائحها العطرة متعة لأنوفنا.

ونحن في الطريق قدّم مسفر لنا مرة أخرى قدراً طبخ فيه زوجين من طيور الحجل، اللذين -لسوء الحظ- لم أرهما قبل أن يطبخا.

سيكون الأمر شديد الإثارة لو عثرت على الحجل بنفسي (Alectoris graeca philbyi) في منطقة بعيدة للشمال مثل هذه، ولكن من الأسلم أن نفترض أن هذه الطيور كانت من نوع الميلانوسيفالا (Melanocephala) إن ندرة الطرائد في كل هذه المنطقة غير المطروقة بصورة شبه كاملة تثير الدهشة تماماً لاسيما وأن هذه القنوات كلها كانت غنية بالنباتات والشجيرات، وكانت أجزاءٌ كبرى من وادي الريط تغطيها غابات حقيقية من أشجار الرتم والمراعي الوفيرة.

وعلى العكس من ذلك كانت خطوط المرتفعات القاحلة نسبياً على كلا جانبينا خالية من النباتات وهي منحدرات الحوض بما فيها ستة نقاط شاهقة ممتدة على يسارنا. وجبل السرو على يميننا، وعقبته

أو ممره في منتصف الطريق تقريباً. وعلى مسافة بعيدة في اتجاه غرب – شمال – غرب يقع جبل النشات الذي يوجد فيه ممر آخر قرب أحد قمتيه الشاهقتين. هذان الممران يوفران طريقاً للدخول من حوض الريط إلى قناة تصريف حيفا، وبالتالي إلى الجزء الجنوبي من وادي مدين.

من المفيد أن نذكر هنا أن جميع قنوات تصريف مياه الحافة الشرقية لجبل مدين العظيم تشق طريقها في النهاية حول هذا العائق حتى تصل إلى الوادي الرئيس، ويحدث ذلك عندما تتجه شمالاً وجنوباً على التوالي عبر وادي الأبيض ووادي حيفا، لتلتف حول طرفي الجبل، ولم أستطع أن أتأكد على وجه التحديد أي الروافد الجنوبية لوادي عفال (الامتدادات السفلى لوادي الأبيض) كانت امتداداً لوادي حيفا، وربما يكون على الأرجح وادي الشويحط الذي يمتد على طول الجهة الجنوبية من جبل الزهد أو ربما يكون وادي حُرَاب. وعلى كل حال، يعد مستجمع أمطار واديي الأبيض وحيفا نقطة البداية لواديين يسيران في اتجاهين متعاكسين تماماً بكل ما في الكلمة من معنى، ثم يتقابلان مرة أخرى قرب البحر بعد أن يرسما شكلاً بيضوياً حول سلسلة جبال مدين.

إن وادي الريط هو الشريان الرئيس لمنطقة محدودة نسبياً، مع أن الجداول التي تلتقي به من كلا الجانبين كثيرة جداً، وفي بعضها توجد

منابع الشرب الدائمة بشكل أو بآخر، مثل ضُريب ويباردة وغيرهما. وقد قيل إن بئر (منبع) يباردة التي لم أزرها حقيقة على الرغم من أنها كانت غير بعيدة عن خط سيرنا، بئرٌ عميقة فيها مياه كافية وقد غرق فيها رجلان منذ وقت طويل مضى.

في هذه المنطقة صادفنا مجموعة صغيرة من الخيام لرعاة من بني عطية من فخذ السُليمات ومعهم قطيعٌ من الأغنام معقولة العدد. وبعد حوالي عشرة أميال باتجاه مجرى التيار من مخيمنا وصلنا صخرة عُريق سعيد المعزولة (١٠٠ قدم) عندما يتسع الوادي عند التقائه بشعيب الخَرَج المنحدر من وراء تلال حوض على يسارنا، ووادي القاع الذي توجد رأسه على مسافة بعيدة عن يميننا في جبل رَوَا والذي ينحدر منه على طول سفح جبلٍ عالٍ يسمى القيسي ذا القمتين المستديرتين الشاهقتين. وتنزل المياه المنصرفة من الجهة البعيدة لجبل روا في وادي عَيْنُونَة الذي يصل البحر عند ميناء الخُريبة الصغير.

لقد كان يحدوني أملٌ في أن أعثر على نقوش على صخرة عُريق سعيد، التي كانت تبدو من بعيد كما لو أنها نتوء منعزل من الحجر الرملي في قفر بازلتي، بيد أن شكلها الجذاب ذا اللونين الأحمر والأسود ثبت في النهاية أنه من أصل بركاني، مزيج من صخور إندست والرايوليت. ربما أجد لزاماً عليّ أن أذكر أنني قد استعملت

بصورة عامة كلمة البازلت لوصف جميع الصخور التي لها طبيعة بركانية خلاف الحمم البركانية المكوّنة حديثاً نسبياً، ولكن في هذه الرحلة كنت قد استفدت من الترحال مع عالم بارع في الجيولوجيا هو بوج الذي جعلني أدرك أنه، في جميع الاحتمالات، كانت معظم الصخور بهذه الصفة التي رأيناها من نوع إندست، ولا يجوز وصفها بالبازلتية فقط.

كنا قد سرنا حوالي خمسة عشر ميلاً في وادي الريط من مخيمنا الليلي (ثلاثة وعشرين ميلاً من مستجمع أمطار الأبيض - حيفا) عندما بدأنا نرى بعض المعالم الأرضية المعروفة لنقع بني مُر، وكانت قمة البلس الصغيرة البارزة تقع الآن في الجنوب - الشرقي، بينما كان شريط مَقْلاع الكبير من الحجر الرملي إلى الجنوب قليلاً من اتجاه الشرق، وكانت قمم مناوة ويزر والوعير تقف شاهقة عن يميننا، وتشكّل قوساً يمتد من الجنوب إلى الغرب تقريباً، بينما عن يسارنا كان يقف جبل الغشيمي خلف منخفضات حوض كمعلم للخط الفاصل بين قناة تصريف المياه المنحدرة في وادي الريط وقناة شعيب الغشيمي، التي تعد رافداً من وادي ضم. وكان اتجاهنا في قناة وادي الريط حتى ممر الضيقة بين جبلي جهراء وعجيثر نحو الشمال من الغرب قريباً. وقد كانت تلال المحرق، المطلة على مستجمع أمطار وادي الأبيض، في الشمال - الغربي تقريباً. وكان ارتفاعنا عند هذه

النقطة ٣٤٠٠ قدم فوق سطح البحر، حيث كان الوادي قد بدأ يتلاشى وينبسط في دلتا واسعة كلما اقترب من التقائه مع دلتا مشابهة من وادي البلس ويتلقى المياه السائلة من عدة أودية أخرى على كلا جانبيه. وقد بدأ مقبل، دليلنا، الآن يشك في نفسه بالرغم من أنه كان رائعاً وممتازاً حتى هذه النقطة، ولكن ارتباكه لا يعنيني كثيراً طالما أنني عدت إلى منطقة مألوفة لديّ. وبعد أن قطعنا حوالي أربعة أميال وصلنا إلى الالتقاء الحقيقي مع وادي البلس، ومن هناك سرنا المسافة نفسها تقريباً على سهل مستوٍ حتى كهفي القديم في جبل «أبو مخروق». ولم يتغير شيء إلا قليل في العامين اللذين مضيا منذ زيارتي الأولى للكهف، على الرغم من أن الآبار كانت متوقفة عن العمل، لذا كنا نضطر لأن نرسل شخصاً إلى بركة قرب مرتفع مقلاع لتعويض ما نحتاجه من ماء.

كنت أنا وزعل الباقيين الوحيدين من الجماعة القديمة في شاحنة السيد التي يصعب الوثوق بها رغم جسارتها، ولكن دخولنا الحالي لحسمى كان على نطاقٍ أشد صخامة من ذي قبل، ومعنا ما لا يقل عن خمس سيارات. لقد حملتني سيارتي القديمة من طراز اللاندروفر، بعد أن تعافت بالكامل من الأعطاب التي مرت بها في تيماء، دون مخاطرة تذكر لما يزيد عن ١٧٠٠ ميل من جدة وهي تسير في جميع أنواع الأراضي في منافسة أخوية مع سيارة بوج

الجيب. وعلاوة على ذلك، كان بوج قد أحضر معه سيارتين من نوع دودج (Point Four Dodge Power-Wagons)، مجهزتين بحبال سحب لإخراجنا من أي متاعب قد نتعرض لها، بينما كان ستة من أتباعنا من وزارة المالية يمتطون شاحنة لوري حكومية لنقلهم في مهامهم الرسمية.

وكنا قد قطعنا فقط خمسة عشر ميلاً تقريباً من صخرة المفرق، عندما ظهر على جهاز قياس الارتفاعات عند بوج قراءة قدرها ٣٢٨٠ قدماً. وقد وفّرت لنا الصخرة الحماية التامة من الريح الشمالية - الشرقية الباردة. وعاد زعل، الذي أرسلته في الحال لتجنيد دليل جديد، ظافراً بالنجاح في مهمته بل إنه جاء أيضاً بشاة ليضمن لنا عشاءً طيباً، وكان الدليل الجديد من خمسات بني عطية يدعى مطير بن مسعود بن خضر بن نجم، وقد أقر بأنه على علم جيد بالمنطقة على طول الجرف الذي سوف نقوم باستشكافه الآن، بيد أننا لا بد أن نترك قصة هذه الرحلات إلى فرصة أخرى، فقد حان الوقت لنعود إلى صخرة المفرق وعام ١٩٥١م.